

عشرة آلاف وأربعمائة كيلو متر مربع فقط لا غير ، تلك هي المساحة الكلية للبلد الأشد اضطرابا ، والأهم موقعا ، والأكثر تباينا ، والأوسع تأثيرا ، لبنان بلد السحر والجمال ، بلاد شجر الأرز الشامخ ، والشمس والساحل ، لبنان برج الشرق ومرآته ، والتجسيد الحي لكل التيارات السياسية والثقافية والدينية في منطقة الشرق الأوسط ، باختلاف توجهاتها وارتباطاتها الإقليمية والدولية ، لبنان كان وما زال واحدا من أعقد ملفات المنطقة ، وقبله موقوتة لا ينزع فتيلها ، ولا تهدأ نارها أبدا.

جاء إعلان الجماعة الإسلامية في لبنان - تيار الإخوان المسلمين - عن نيتها تأييد المرشح الرئاسي عن تكتل 14 آذار المدعومة غربيا وخليجيا " سمير جعجع " صاحب التاريخ الدموي الكبير ، وأحد سفاحي صبرا وشاتيلا ، وذلك على حساب السفاح الثاني مرشح كتلة 8 آذار " ميشيل عون " المدعوم سوريا وإيرانيا ، لتلقي بظلال جديدة على أم المشاكل اللبنانية ، وأصل الفساد في البنية اللبنانية الداخلية ، ونقصد بها " الطائفية " . فقد كشف هذا الخيار الاضطرابي المستغرب عن حجم وأثر وخطورة الخلل البنيوي في النظام القائم على قاعدة الطائفية في لبنان ، كما كشف عن عمق تأثير الطائفية وانعكاساتها الخطيرة على الاستقرار الإقليمي والدولي.

فلبنان بلد مشحون بالصراعات الطائفية منذ عهد الإدارة العثمانية ، حيث كان يعرف بإقليم " الجبل " نسبة إلى جبل لبنان ، وكان الصراع على أشده بين النصارى الموارنة وفرقة الدروز الباطنية ، ووقعت العديد من المذابح بين الجانبين ، مما أثقل الذاكرة اللبنانية بسوداوية زادها الأيام والوقائع سودا .

لبنان بلد أريد له منذ دخول الاحتلال الأوروبي إلى عالمنا العربي والإسلامي ، أن يكون بؤرة توتر دائمة . ففرنسا عندما استفردت بالانتداب على بلاد الشام وفقا لبند اتفاقية سايكس - بيكو تجاوبت سريعا مع مطالب نصارى لبنان الجبل الرامية لتأسيس وطن قومي للنصارى ، على حساب المسلمين ، فقاموا بقضم أربعة أفضية من سوريا الكبرى وضمها للبنان الصغير أو الجبل وهي: سهل البقاع وبعبك وطرابلس وصيدا وصور ، معلنة استقلال لبنان تحت انتدابها سنة 1920 ، وبلغة طائفية حادة وأثر فرنسي كبير تم وضع أول دستور للبنان سنة 1926 ، ولم يزد استقلال 1943 إلا طائفية ، بعد أن توافق اضطرابا زعامات لبنان النصرانية بكل طوائفها والمسلمة بكل طوائفها ، على محاصصة طائفية يتم تسيير الحياة السياسية بموجبها وفق تركيبة غريبة جعلت للنصارى تمثيلا أكبر من تكوينهم ، فلهم الرئاسة ، ولأهل السنة رئاسة الوزارة ، وللشيعة رئاسة البرلمان ، وكذلك سائر الوظائف والمناصب القيادية في البلاد ، مع احتفاظ النصارى الموارنة بمعظم الوظائف الأمنية والمخابراتية والمالية في الحكومة ، ومن سنة 1943 ولبنان يسير وفق هذه الأراجيح والقواعد المركبة.

هذه الطائفية السياسية مثلت معاناة مزمنة للدولة اللبنانية صارت بها الدولة زبونا دائما على قائمة الدول الأكثر فشلا ، فالطائفية اللبنانية هي العنصر والمحرك الأساسي في ديناميكية عمل النظام ، وكذلك هي العامل الفاعل الأول في طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فالطائفية تدخل في كل كبيرة وصغيرة في لبنان؛ فالأحزاب السياسية طائفية ، والدستور طائفي ، والسلطات الثلاثة طائفية ، حتى النوادي الرياضية ، والأفلام والمسلسلات طائفية ، فالطائفية ترمي بأطنابها في كل بقعة على أرض لبنان.

الطائفية اللبنانية أدت لاستقلال الطائفة ، واستحوادها على مجالات معينة في الدولة ، وهذا أدى بدوره لفقدان معنى سلطة الدولة وهبتها ودورها بسبب عدم ممارستها لوظائفها اليومية ، فجل ما تفعله الدولة هو نوع من الإجراءات التي لا تمس استقلال الطوائف ولا تشكل تهديدا لكيانها واستقلاليتها ، لذلك فقد حرص النصارى في خريطة الطائفية على بقاء معظم الوظائف والمناصب الأمنية في أيديهم ، خاصة قيادات الجيش ، مما جعل المسلمون دائما في حالة استفار وتوجس وحذر من المكون الماروني في لبنان ، لذلك لم يكن مستغربا أن يؤيد كثير من قيادات النصارى في لبنان الاحتلال الصهيوني لبلادهم ، كذلك لم يكن مستغربا رفض الموارنة الاشتراك في الدفاع عن جنوب لبنان بعد وقوعه تحت الاحتلال الصهيوني ، حيث لا يشعر المواطنون اللبنانيون بمعنى الوطن والمواطنة تجاه بلدهم الأم لبنان.

الطائفية هي أس كل بلاء وقع على أرض لبنان ، وكل المآسي التي شهدتها البلاد منذ الاستقلال سنة 1943 حتى وقتنا الحالي سببها الطائفية ، فالنصارى يرون لبنان الدولة والوطن جزءا من الغرب الأوروبي النصراني ، والمسلمون يرون لبنان الدولة والوطن جزءا من العالم العربي الإسلامي ، وبين التباين في هاتين النظرتين ضاع لبنان ، ومزقته الطائفية ، فأحداث 1958 الدموية التي راح ضحيتها 1200 لبنانيا ، كانت بسبب التطورات السياسية الإقليمية والوحدة بين مصر وسوريا ، والثورة العراقية في نفس السنة ، وارتفاع المد القومي العربي في المنطقة ، وانسحاب آثار هذه التطورات على لبنان ونظامه السياسي وزعاماته الطائفية ، فقد سارع الرئيس اللبناني الموالي للغرب " كميل شمعون " باستدعاء أمريكا لحماية لبنان من المد القومي الوجودي ، فبادرت أمريكا وأرسلت قواتها البحرية إلى سواحل لبنان ودخول العاصمة اللبنانية ومنع قوى المعارضة من تغيير النظام الأساسي للطائفية السياسية . وفي أزمة الحرب الأهلية (1975 - 1990) انطلقت كل شياطين الطائفية لتحول لبنان إلى ساحات قتال وخراب وحمامات دم راح ضحيتها مئات الألوف من القتلى والجرحى ، واحتل الصهاينة الشريط الجنوبي للبنان ، ودخلت سوريا بكل ثقلها ، وتوترت المنطقة بشدة ، وصارت لبنان ميدانا للصراع الدولي بكل تداعياته وحساباته وتوازناته ، وصار كل حدث أو مشكلة دولية نجد أثرها وتداعياتها في الوطن اللبناني لشدة تداخله إقليميا ودوليا مع الأطراف المؤثرة .

الطائفية اللبنانية سمحت خلال فترة الحرب الأهلية الطويلة بظهور قوى سياسية شيعية بأذرع عسكرية مسلحة قويا ، مثل حركة أمل وحزب الله الشيعي ، في حين لم تسمح بظهور مثلها - أقصد العسكرية - لأهل السنة في لبنان ، بسبب انحياز أهل السنة إلى اللاجئين الفلسطينيين في الحرب الأهلية ضد النصارى الموارنة وحلفائهم ، وكان هذا الضعف العسكري لأهل السنة في المعادلة الطائفية اللبنانية من أسوأ تداعيات هذه الحرب الأهلية ، فقد كان أهل السنة الطائفة الوحيدة التي ذهبت إلى اتفاق الطائف ورجعت بلا شيء . فلم يكن للسنة عندما بدأ مؤتمر الطائف إلا بقية من زمن ناصري غابر وبعضا من أمجاد قومية عربية باهتة ، لم تكن مؤهلة لإدراك خطورة وحساسية اللحظة ، فعادوا بعد أن كسرت شوكتهم ، وذهب ريحهم ، واستأسد الشيعة عليهم ، ومن يومها المسلمون السنة هم الجانب الأضعف قوة ، والأقل تأثيرا ، والأكثر تأثرا ، من تداعيات طائفية لبنان التي لا تنتهي .

وغير الضعف العسكري الذي عليه أهل السنة في لبنان فهم يعانون من مشاكل أخرى لا تقل خطورة وتأثيرا ، من أبرزها غياب القيادة السياسية الواعية بمشاكل أهل السنة واحتياجاتهم ، والقادرة على توحيد الصف السني ، في مواجهة التهديد الشيعي النصراني المشترك ، فتيار المستقبل الذي يقوده سعد الحريري في لبنان والذي يمثل أهل السنة سياسيا ؛ تيارا علمانيا له ارتباطات خارجية أكثر منها داخلية ، وشباب أهل السنة يعانون من فراغ ديني وثقافي كبير في ظل البيئة العلمانية الضاغطة علي كثير منهم ، أيضا يعاني أهل السنة من الرؤية المنهجية التي توحد صفوفهم ، وهم يعانون أيضا من تجاهل الحكومات العربية السنية التي من الممكن أن تقدم للبنان كل الدعم إلا دعم المسلمين فيها ، في حين أن إيران الفارسية تقدم الدعم بلا حدود للتنظيمات والمليشيات الشيعية في لبنان ، وتوفر لها غطاء سياسيا ودعما لوجستيا وعسكريا جعل المليشيات الشيعية مثل أمل وحزب الله رقما صعبا في الحياة السياسية اللبنانية ، بل إن قوتها العسكرية تفوق قوة الجيش اللبناني كله ، وكما قيل من قبل : من يمتلك السلاح والقوة ، يمتلك القرار والقدرة .

ونظرا لهذه التداعيات المقيمة للطائفية على أهل السنة في لبنان نجدهم اليوم مضطرين للدخول في مفاضلات بين خيارات صعبة وضيقة ، فهم إما أن يقاطعوا العملية السياسية على ضعفهم وقلة حيلتهم ، على أمل أن يكون لهذه المقاطعة دور في تقوية مركزهم وتحسين أوضاعهم ، وإما أن يراهنوا على أحد الطرفين ، وهما طرفان أحلاهما شديد المرارة ، كلاهما سفاح عدو لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن أحدهما وهو سمير جعجع يعادي سوريا وإيران وسيعمل بكل قوة على تقليل نفوذهما في لبنان ، وسيعمل على تحجيم دور حركة حزب الله الشيعي في لبنان ، وربما منعه من الاشتراك بأكثر من ذلك في الشأن السوري - وإن كنت أظنه لا يفعل لعداوته للإسلام والمسلمين - وهو مدعوم دوليا وخليجيا ، وإما أن يختاروا ميشيل عون المدعوم سوريا وإيرانيا وروسيا ، ويريد مزيدا من التدخل السوري في الشأن اللبناني . وبين جعجع وعون ما زال يتخبط المسلمون ، وكأنني بأهل السنة في لبنان ينشدون قول الشاعر الهاشمي الشهير " عيسى بن موسى " :

كاتب المقالة : شريف عبد العزيز

تاريخ النشر : 01/05/2014

من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصفر

رابط الموقع : www.mohammdfarag.com